الحكم المصري في بلاد الشام

(فلسطين العثمانية)

١٨٣٠ - ١٨٣٥م

إعداد

د. إسماعيل أحمد محمد ياغي

الرئاسة العامة لتعليم البنات - وكالة كليات البنات

كلية الآداب للبنات - قسم التاريخ - الرياض

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بحث مقدم

للجمعية التاريخية السعودية

محرم ١٤٢٢هـ/ مارس ٢٠٠١م

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

الحكم المصري في فلسطين العثمانية:

استولت الدولة العثمانية على بلاد الشام أثر انتصارها على المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م، وأصبحت فلسطين منذ ذلك التاريخ جزءاً من الدولة العثمانية، ولم تغير الدولة العثمانية النظام الاجتماعي السياسي القائم على الاقطاع، وإنما غيرت الاقطاعيين وأجرت تقسيمات إقليمية جديدة[١].

ولا ريب أن الاقطاع في الدولة العثمانية قد اختلف عن الاقطاع في أوربا، من حيث أن الإقطاعي في الدولة العثمانية كان يمنح المقاطعة بما فيها من قرى وأرض، كما كان يفوض لجباية الأعشار والضرائب المترتبة عليها، وعلاوة على ذلك؛ كان على الإقطاعي أن يكون دوماً على الاستعداد للحرب، وأن يتولى إعداد الخيالة والفرسان وتجهيزهم بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة وخيول.

ويقف على رأس الهرم الإقطاعي السلطان، وهو الذي يعين الولاة والاقطاعيين، والولاة يقسمون اقطاعياتهم إلى اقطاعيات صغيرة يمنحونها للملتزمين نظير دفع مبلغ معين للوالي، وقد تم تقسيم البناء الهرمي إدارياً وعسكرياً إلى ولايات، والولايات تقسم بدورها إلى ألوية أو سناجق، وهذه تتكون من عدد من التيمارات والزعامات. كما تم تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات هي: العسكر والعلماء والتجار والرعية (الفلاحون والعمال والحرفيون وغيرهم)[٢].

وينقسم الحكم العثماني إلى عصرين هما: العصر الأول (عصر القوة) والعصر الثاني وهو عصر الضعف؛ وخلال فترة ضعف الدولة العثمانية، قامت حركات انفصالية ومن بينها حركة الأمير فخر الدين المعنى وظاهر العمر وأحمد الجزار وعلي بك الكبير وغيرهم، وسيطرت هذه الحركات على فلسطين، كما تعرضت فلسطين للحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٩م، وفشلت في تحقيق أهدافها وعادت من حيث أتت[٣].

---

(١) د. أميل توما، فلسطين في العهد العثماني، عمان ١٩٨٤م، ص١١.

(٢) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠م، ص٢٩.

(٣) د. أميل توما، المرجع السابق، ص٥٨ ـ ٥٩.

ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الظروف التي أدت إلى صعود محمد علي وتوليه ولاية مصر، وكذلك إلقاء الضوء على حملة محمد علي إلى بلاد الشام، ومن ضمنها فلسطين والموقف المحلي والدولي منها، وأخيراً تفسير عوامل قيام ثورة فلسطين ضد الحكم المصري والنتائج التي ترتب عليها. وسيركز البحث على الأوضاع الدولية وبخاصة موقف فرنسا من مصر والدولة العثمانية، رغم العلاقات الجيدة التي تربط بين فرنسا والدولة العثمانية.

حملة نابليون بونابرت على مصر وظهور محمد علي (١٧٩٨ ـ ١٨٠١):

لقد كانت الدولة العثمانية من البداية جزءاً من الوضع الدولي الذي كان يحتل مركز الصدارة في التاريخ الإنساني العام، فجيوشها احتلت أقاليم واسعة في أوربا الشرقية والوسطى. ولم يتوقف صراعها مع بعض الدول الأوربية منذ نشوئها، بل إزداد عنفاً واتساعاً مع مرور الأيام والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتواصلة في موقع الالتقاء بينها وبين تلك الدول[١].

ومما يجدر ذكره أن تكالب الدول الأوربية الاستعمارية على احتلال الأقطار الضعيفة جعلت الدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا تنظر في مسألة احتلال أقاليم الدولة العثمانية (رجل أوربا المريض) بشكل جدي وتنتظر الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك[٢].

حاولت فرنسا النزول إلى الميدان الاستعماري بارسال قواتها إلى كندا وإلى بعض الجزر في الهند الغربية، وسارت في ذلك الحركة الاستعمارية العامة التي اجتاحت كل أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكن بريطانيا نافست في الميدان الاستعماري في العالم الجديد. وتمكنت من الاستيلاء على كندا، ومن مضايقة فرنسا في مستعمراتها في الهند والمحيط الهندي، وذلك في أعقاب حرب السنوات السبع وهزيمة فرنسا عام ١٧٦٣م، إلا أن قيام الثورة الفرنسية قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية في العالم، ودخل بالتنافس البريطاني الفرنسي إلى ميدان جديد[٣].

---

(١) د/ أميل توما، المرجع السابق، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٢) د. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢٢.

(٣) د. جلال يحيى، العالم العربي الحديث، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨٤.

وكان البريطانيون قد قاموا بعدة محاولات لاستخدام طريق البحر المتوسط الذي يمر عبر الاسكندرية ومنها إلى القاهرة فالسويس، لكي يواصلوا السفر في البحر الأحمر ثم المحيط الهندي، وكانوا قد واجهوا صعوبات متعددة أمامهم في هذا الطريق، أولها الباب العالي، ثم البكوات المماليك في مصر، والأهالي العرب بصفة عامة، إذ أنهم كانوا لا يوافقون على حضور السفن الأوربية إلى البحر الأحمر، لكي تحارب العرب مع البرتغاليين الذين هاجموا موانئ البحر الأحمر مما جعل العرب يفكرون كثيراً قبل أن يسمحوا للأوربيين بالملاحة في هذا البحر حفاظًا على الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة(١).

ورغم كل ذلك، فقد تمكنت الشركات الاستعمارية البريطانية من عقد اتفاقيات تجارية مع البكوات المماليك، للمرور عبر مصر، ومنها الاتفاقية التجارية التي عقدتها انجلترا مع محمد بك أبو الذهب، الذي تطلع إلى الانفصال عن الباب العالي، وذلك من أجل تأمين سير السفن البريطانية في البحر الأحمر، وهذا يوضح أهمية العلاقات الودية بين بريطانيا ومصر وذلك حفاظًا على طرق المواصلات البريطانية مع الهند(٢).

وكان لتقارير وكتابات رجال السياسة والرحالة الفرنسيين أكبر الأثر في كشف القناع عن حالة الدولة العثمانية، وما اعتراها من ضعف من جهة، وتوجيه انظار مواطنيهم إلى مصر من جهة أخرى، وقد أقبل السياسيون على دراسة التقارير باهتمام كبير عندما تجددت الرغبة في الاستعمار(٣).

وقد اختارت حكومة الثورة الفرنسية الجنرال نابليون بونابرت قائداً لحملتها على مصر، وزودت هذه الحملة بكل ما يلزمها من عتاد ومعدات، وأعطت قائدها حرية التصرف فيما يراه مناسبًا، وكانت أولى المحاولات الأوربية الاستعمارية للسيطرة على المنطقة، وقد وصل الاسطول الفرنسي الاسكندرية وتمكن من احتلالها، ثم زحف نابليون بحملته إلى القاهرة، وهكذا أصبح نابليون بونابرت في موقف يهدد به المواصلات البريطانية مع الهند(٤). غير أن

---

(١) د/ بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي ج١، الكويت، ١٩٨٤م، ص٢٣.

(٢) د/ محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) د/ جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٧.

(٤) Dodwell, H, The Foumder of Modrn Egypt. Astudy of Mahammad Ali, Combri dge 1931, P. 53.

بريطانيا لم تسكت على عمل فرنسا هذا، فقامت باحتلال جزيرة بريم في مضيق باب المندب، لكي تعرقل أي تقدم فرنسي نحو الهند، كما استطاع الاسطول البريطاني بقيادة الأميرال تلسون من تدمير الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير في أول أغسطس ١٧٩٨م، كما أرسل السلطان العثماني سليم الثالث سفناً عليها قوات تركية عثمانية إلى مصر، ولذا أصبح موقف الفرنسيين صعباً للغاية بعد تدمير اسطولهم، وقطع خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا، إلا أن بونابرت واصل حملته التي حضر من أجلها وأمر قواته بالزحف على سوريا مبتدئاً بفلسطين، وقد تصدت بريطانيا والدولة العثمانية لهذا التقدم الفرنسي مما اضطر بونابرت في النهاية إلى العودة إلى فرنسا. وقد اضطرت الحملة الفرنسية إلى الانسحاب من مصر والعودة إلى أوربا بعد ذلك وقد فشلت الحملة المذكورة في ضرب بريطانيا في الهند من ناحية، كما فشلت في إقامة مستعمرة فرنسية في مصر من ناحية أخرى(١).

وهكذا فإن الحملة الفرنسية على مصر قد فتحت أبواب الاستعمار على مصر لأهمية موقعها الجغرافي والاستراتيجي، وتحكمها في بحرين عالميين (البحر الأحمر والبحر المتوسط)، وبالتالي كان قيام بريطانيا بتحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبو قير، دليلاً على رفض بريطانيا لوجود قوى منافسة على الطريق التجاري العالمي بين بريطانيا والهند. كما اشتركت بريطانيا مع الدولة العثمانية والشعب المصري في إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١م، ورغم انسحاب الفرنسيين فإن الاسطول البريطاني ظل محاصراً الشواطئ المصرية حتى عام ١٨٠٣م، بعد توقيع اتفاقية اميان بين بريطانيا وفرنسا. ولما فشلت بريطانيا في إيجاد حكم مملوكي تابع لها في مصر فإنها عادت وحاولت احتلال مصر عام ١٨٠٧م بقيادة فريزر، وفشلت الحملة الانجليزية بسبب مقاومة الشعب المصري للحملة الإنجليزية بقيادة محمد علي الذي أقام دولة جديدة في مصر، والتي قاومتها بريطانيا وانتهى الأمر باحتلال مصر عام ١٨٨٢م(٢).

---

(١) Playfair, R. L. A History of Arabia Felix of yemen, Landon, 1930, pp. 122 - 3.

(٢) عبدالرحمن زكي، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، دار المعارف، ١٩٥٠م، ص٩.

عصر محمد علي:

أدت الحملة الفرنسية إلى ظهور محمد علي وتوليه السلطة في مصر، وقد ولد محمد علي في قوله بمقدونيا عام ١٧٦٩م، وكان والده يدعى إبراهيم أغار رئيسًا لحرس الطرق، وتوفي ومحمد علي لا يزال حدثًا يافعًا، وكفله بعد موت والده، عمه طوسون أغا، والذي توفي بعد فترة قصيرة، فرعاه حاكم قوله وشمله برعايته وزوجه من أبنة صديق له كانت في بحبوحة في العيش، فاستعان بمالها على مزاولة التجارة[١]. ولما بلغ محمد علي التاسعة عشرة من عمره، كلفه حاكم قوله بالقضاء على القراصنة اليونايين ونجح في القضاء عليهم، فعين محمد علي ضابطًا في الأسطول العثماني برتبة يوزباشي (نقيب)، وهو في العشرين من عمره، وعهد حاكم قوله إلى محمد علي بمبهمات أخرى كان موفقًا فيها[٢].

وظل محمد علي في خدمة هذا الحاكم حتى قيام الفرنسيين بغزو مصر، فقررت الدولة العثمانية مقاومتهم، وصدر الأمر إلى كل منطقة بأن تقدم عددًا من الرجال، وكان نصيب قوله ثلاثمائة مقاتل بأسلحتهم وعتادهم، فعين حاكم قوله ابنه علي آغا قائدًا لها واختار محمد علي مساعدًا ومستشارًا له، ولكن محمد علي أصبح هو قائد القوة بعد أن تنازل له علي آغا عن قيادة الفرقة لأنه لا يميل إلى الجندية[٣].

وفي أعقاب الحملة الفرنسية على مصر عام ١٨٠١م، لمع اسم محمد علي بسبب بسالته وشجاعته في معركة الرحمانية مع الفرنسيين، فقد أشاد قبطان باشا قائد البحرية العثمانية في الاسكندرية، بمحمد علي وقدمه إلى خسرو باشا والي مصر ونوه بكفاءته وشجاعته، فرقاه خسرو باشا لواء فغدا ثاني القواد الألبانيين في المقام، ومنذ ذلك الحين شرع محمد علي يمنى النفس بالآمال الواسعة والطموحات الكبيرة[٤].

تعددت القوة المتصارعة على السلطة، فالأتراك العثمانيون عادوا للاستيلاء على البلاد، أما المماليك فقد اعتبروا أنفسهم أصحاب مصر، وكذلك ظل الانجليز محاصرين للسواحل

---

(١) نفس المرجع، ص١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١١.

(٣) عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص١١.

(٤) نفس المرجع، ص١١-١٢.

المصرية، ووجدوا في المماليك ركيزة وسندا لهم لتحقيق أهدافهم[1]. وقد أهمل الجميع قوة الشعب المصري باستثناء محمد علي الذي اهتم بالشعب المصري مما جعل الشعب ينحاز له ويتعاون معه على سحق المماليك، وكان له النصر. وقد أصبح ذا شعبية واسعة أقلقت السلطان العثماني الذي استدعاه وعينه والياً على مصر نتيجة مطالبة زعماء الشعب بتولية (محمد علي) ولاية مصر من جهة، ونتيجة انشغال السلطان العثماني بالحرب العربية من جهة أخرى، وبذلك تم لمحمد علي باشا القضاء على الانكشارية والمماليك[2].

تقلد محمد علي السلطة في مصر بمؤازرة زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم، واستطاع أن يطرد الانجليز من الاسكندرية بعد حملة فريزر عام ١٨٠٧م، وبذلك تمكن محمد علي من تثبيت حكمه في مصر، واعتبر بطلاً قوياً، وزادت شعبيته كثيراً في مصر، مما مكنه من جعل مصر دولة حديثة عصرية، وأقام فيها أنظمة إدارية وثقافية، واجتماعية وعسكرية واقتصادية، فأصبحت مصر دولة تفوق الدولة العثمانية بتنظيمها وتطورها وتقدمها العلمي[3].

أصبحت مصر أكبر قوة في الدولة العثمانية الضعيفة والتي بدأت تتخبط وتتعثر وتتطلع إلى من يشد أزرها في وجه الأطماع الأوربية، هذا فضلاً عن رغبة حاكمها محمد علي باشا للقيام بهذا الدور والوقوف في وجه الأطماع الأوربية تحقيقاً لأحلامه وأمانيه في تكوين امبراطورية واسعة ربما تصل إلى استانبول، وربما تقف عند حدود البلاد الناطقة بالضاد (البلاد العربية)[4]. وكذلك فإن محمد علي قد لبى نداء السلطان وأخضع الثورة اليونانية التي قام بها الصرب ضد الدولة العثمانية عام ١٨٢١م، واستمرت حتى عام ١٨٢٨م[5]. وكذلك تمكن محمد علي من القضاء على الدولة السعودية الأولى عام ١٨١٨م، وأكمل فتوحاته

---

(١) د. جاد طه، المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا في سوريا، تحقيق أحمد غسان، بيروت، بدون تاريخ، ص١٠.

(٣) نفس المرجع.

(٤) د. لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في بلاد الشام، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٧ ـ ١٨.

(٥) Fo. 78 vol 22, From Palmenstone to Campbell. Feb 1833 Quoted from Asad Rustum, The Royal Archives of Egypt and tle Expeditiom of syria, p. 61.

بالتوجه إلى السودان وفتحها وضمها إلى مصر الوطن الأم، وأخيراً قام بالتوسع في اتجاه المشرق العربي وفتح بلاد الشام وعبر الأراضي التركية العثمانية[١].

غير أن طموحات محمد علي وأحلامه لم تكن لتخفى عن السلطان العثماني من جهة، كما أن انجلترا وفرنسا لم تفضلا عنها من جهة أخرى، فهاتان الدولتان كانتا تقدمان المساعدة لمحمد علي طالما هو معهما، وعندما وجدت هاتان الدولتان أن محمد علي في زحفه على سوريا وهجومه على آسيا الصغرى، بات يهدد مصالح الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا، الأمر الذي دفع السلطان العثماني إلى الاستعانة بكل من بريطانيا وفرنسا وإرغام محمد علي على وقف علمياته العسكرية أولاً، ثم العودة إلى مصر ثانياً، وبقاء سلطته في مصر له ولأولاده من بعده[٢].

ومما لا ريب فيه أن محمد علي باشا بدأ يخطط لاحتلال الشام منذ زمن وعلى وجه التحديد منذ عام ١٨١١م، وقبل أن يتوجه بحملته إلى الجزيرة العربية للقضاء على الدولة السعودية الأولى، فما هي الأسباب التي دفعت محمد علي لاحتلال بلاد الشام؟؟

محمد علي وطموحاته في السيطرة على بلاد الشام:

وضع محمد علي هدفه نصب عينيه وهو السيطرة على بلاد الشام، لأن امتلاكها يحميه من السلطان، ويمنحه السيادة على بيت المقدس ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الإسلامية، وتلبي معظم حاجاته الاقتصادية[٣]. أما الأسباب والدوافع الحقيقية وراء حملة محمد علي بلاد الشام فهي:

أولاً ـ أسباب شخصية:

بدأت مطامع محمد علي تظهر للوجود منذ أن سيطر على مصر، وجعل منها دولة عصرية قوية تفوق الدولة العثمانية، فهو يرى أنه من سلالة الاسكندر الأكبر المقدوني، والذي ولد في

---

(١) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) مذكرات تاريخية لمؤلف مجهول، نفس المرجع، ص١٠ ـ ١١.

(٣) عبدالرحمن زكي، نفس المرجع، ص٣٧٧.

نفس منطقته. ويرى من ناحية أخرى أنه قد ولد في نفس اليوم الذي ولد فيه نابليون بونابرت، والذي أقام امبراطورية كبرى في أوربا[١]. لذلك رأى أن يقلد نابليون والاسكندر الأكبر حيث تزامن اعتلاؤه على عرش مصر، مع اعتلاء نابليون عرش الامبراطورية الفرنسية، وقد تهيأت له الظروف لتكوين امبراطورية عندما كلفه السلطان العثماني بالقضاء على الدولة السعودية ونجح في ذلك عام ١٨١٨م، وبذلك سيطر على شبه الجزيرة العربية، ثم ضم السودان عام ١٨٢٠م، ونجح في القضاء على الثورة الصربية في بلاد اليونان عام ١٨٢٨م، ورنا ببصره البعيد إلى بلاد الشام ليحقق حلمه في قيام امبراطورية واسعة ربما تحل محل السلطنة العثمانية[٢].

ثانيًا ـ أسباب سياسية:

لا ريب أن هناك خلافات بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا بسبب سوء النية بين الطرفين، وفقدان الثقة بينهما، إذ أن السلطان العثماني قلد محمد علي ولاية مصر مكرهًا لأن زعماء الشعب طلبوا منه ذلك، وكان السلطان العثماني يعمل ما وسعه الجهد لعزل والي مصر[٣]، ولذلك قام محمد علي يدافع عن نفسه بشتى الوسائل للحفاظ على جاهه ومنصبه وحياته. فمنذ أن استولى محمد علي على السلطان وهو حذر بشكل كاف، فكان يقوي من دولته وقوته، وكان يهدف إلى استقلال مصر وضم بلاد الشام لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية تدعيمًا لقوته ومكانته[٤]. كما أن ضم بلاد الشام سيؤدي إلى تسهيل فتوحاته في آسيا بدون عائق، مما يؤدي إلى الاضرار بمركز الدولة العثمانية[٥]. ولا ريب أن استيلاء محمد علي على بلاد الشام سيقف حائلاً أمام أي عدوان عثماني بهدف انتزاع مصر منه، فهو يرى أن الشام ضرورية لسلامة مصر للدفاع عنها من الغزوات الخارجية ولتأمين حدوده وحماية ممتلكاته[٦].

---

(١) مذكرات تاريخية لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ص١٠.

(٢) عبدالرحمن زكي، التاريخ الهرمي لعصر محمد علي، ص٣٨٠.

(٣) نفس المرجع.

(٤) وثائق عابدين، وثيقة رقم ٧٢، عابدين محفظة ٢٣٨، بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١٢٤٨هـ من إبراهيم باشا إلى محمد علي باشا.

(٥) أحمد حافظ عوض، فتح مصر الحديث، القاهرة، ١٩٢٦هـ، ص٣١٦.

(٦) سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت ١٩٢٩م، ص٤٦.

ثالثًا ـ أسباب استراتيجية:

من المعروف أن بلاد الشام ضرورية لأمن مصر، فجبال طوروس تمثل خط الدفاع الأول عن مصر ويليه الخط الثاني في لبنان، وخط الدفاع الثالث في فلسطين، والخط الرابع في سيناء[1]، وقد رأى محمد علي بثاقب بصره بأن الغزوات التي تعرضت لها مصر عبر التاريخ كانت من الشرق، فإن صحراء سيناء وحدها لا تعد خطًا منيعًا للقتال والدفاع، والدفاع عن أمن وادي النيل من الشرق يبدأ من جبال طوروس وجبال سوريا التي كانت عبر التاريخ مقبرة لجيوش الفرنجة والمغول والحثيين، . هذا فضلاً عن أن بلاد الشام ومصر تشكلان وحدة اقتصادية وجغرافية، ومن أجل هذا رغب محمد علي في تكوين وحدة سياسية منها[2]. ومما يجدر ذكره، أن مصر وبلاد الشام ارتبطتا بوحدة سياسية في عهد الفراعنة، وفي العصور الإسلامية، وكذلك في العصر الحديث. ولكن تجربة الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م قد فشلت بسبب دولة الكيان الصهيوني التي كان أحد أهداف قيامها تمزيق وحدة الأمة العربية وفصل المشرق العربي عن مغربه، وقد حققت هذه الدولة العنصرية هذا الهدف ولا زالت الأمة العربية تعاني من مشكلات التمزق والتفتت.

كان محمد علي يهدف من وراء حملته إلى بلاد الشام الحصول على الزعامة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالحجاز، وذلك لأن الوجود العثماني ارتبط وتوثق بالإسلام، ولذا فإن محمد علي أراد أن يحصل على مكانة دينية تمكنه من عزل السلطان محمود الثاني الذي لم يكن على علاقة طيبة معه، هذا فضلاً عن أنه حاول الحصول على إعلان من علماء دمشق بعدم قدرة السلطان محمود الثاني على الحكم ورفضوا ذلك. لهذا كان إبراهيم باشا كثيراً ما يصرح بأن التزاماتهم الدينية والشخصية نحو العالم الإسلامي تتطلب منهم أن لا يفكروا في مصالحهم فقط، بل وفي مصالح رفاهية وسعادة الأمة الإسلامية[3]. وعلاوة على ذلك، فإن

---

(١) وثائق عابدين، وثيقة رقم ١٩٠، عابدين محفظة ٢٤٠، بتاريخ ٢٧ جمادى الآخرة، ١٢٤٨هـ، من إبراهيم باشا إلى محمد علي باشا.

(٢) وثائق عابدين، وثيقة رقم ٨، عابدين محفظة ٢٣٨، بتاريخ ٣ محرم ١٢٤٨هـ، من محمد علي باشا إلى نجيب افندي وكيله في الآستانة.

(٣) وثائق عابدين، محافظ الشام، ومحفظة ٦٤، وثيقة ٨٥ بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٨هـ.

لبلاد الشام مكانة ثقافية، فهي تضم القدس الشريف، ودمشق وهي احدى المراكز القيادية للثقافة الإسلامية، وبذلك يتم لمحمد على السيطرة على القاهرة ودمشق والقدس[١].

خامسًا ـ أسباب قومية:

كانت الشام ومصر تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبيعية، لذا فإن محمد علي أراد أن يجعل الأقليميين وحدة سياسية أيضًا، فهو يرى أن الشام ضرورية لأمن مصر[٢]. وكان محمد علي يريد أن يحي القوة العثمانية من جديد لإيجاد مكان لائق لها في العالم الجديد، يربط بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادي النيل)[٣]. أما إبراهيم باشا فقد كان يرغب في إحياء نهضة عربية وتأسيس دولة عربية واحدة، فقد خلقت الظروف منه ومن أعوانه عربيًا مخلصًا وأنه تربى وعاش في الأقطار العربية فانتسب إلى الشعب العربي، وفي هذا الصدد يقول إبراهيم باشا: «أنا لست تركيًا فإني جئت مصر صبيًا، ومنذ ذلك الحين مصر تني شمسها، وغيرت من دمي وجعلته دمًا عربيًا». كما أن إبراهيم باشا رد على سؤال إلى أين ستصل فتوحاتك، فأجاب إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وأياهم باللسان العربي[٤]. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان إبراهيم باشا صادقًا في إحساسه بانتمائه إلى العربية، لاشك أن إبراهيم باشا استطاع أن يحول الدولة التي أنشأها والده إلى دولة عربية صحيحة رغم أن إبراهيم باشا لم يتقن اللغة العربية تمامًا، كما أنه لم يكتب بها.

سادسًا ـ أسباب اقتصادية:

كان محمد علي في حاجة إلى موارد بلاد الشام الاقتصادية، فيوجد بالشام المعادن والفحم الحجري والأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وغيرها من المنتجات كالحرير والزيتون والصابون والجلود والطباق (الدخان) والخيول. فكان محمد علي يرى أن امتلاك بلاد الشام ستدر عليه الأرباح، ويقيم التكامل الاقتصادي بين مصر والشام، ويقوي دولته وأسطوله[٥]. وقد أرسل محمد علي رسالة إلى ولده إبراهيم باشا بأن يهتم بمسألة الخشب اهتمامًا كبيرًا[٦].

---

(١) Dodwell, H. op. cit. pp. 108 - 111.

(٢) عبدالرحمن زكي، نفس المرجع، ص٣٨٦.

(٣) أميل توما، نفس المرجع، ص٥٩ ـ ٦٠.

(٤) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ط، القاهرة، ١٩٢٦م، ص٩٣.

(٥) عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص٢٩٨، ص٣٨٤.

(٦) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٨، وثيقة رقم ٨، ٣ محرم، ١٢٤٨هـ، من محمد علي باشا إلى ولده إبراهيم باشا.

سابعًا ـ أسباب اجتماعية:

سادت القلاقل والاضطرابات والفوضى بسبب سوء الإدارة وتحكم رؤساء الجند إبان ضعف الدولة العثمانية، وانعكست الظروف السيئة على المجتمع، وزاد ظلم الولاة الذين خرجوا عن طاعة الدولة العثمانية لضعفها، فقامت ثورات واضطرابات في دمشق وغيرها من المدن السورية بسبب الضرائب، كما عانى النصارى واليهود من الاضطهاد، وأصبح المجتمع بكافة طوائفه يئن من الظلم والفساد، واستغل محمد علي الصراع بين الولاة أمثال عبدالله الجزار ويوسف كنج وسليمان باشا والأمير بشير الشهابي لتحقيق أهدافه[1].

الحملة المصرية على بلاد الشام:

كانت بلاد الشام محط أطماع محمد علي منذ حروبه في الجزيرة العربية[2]، فقد طلب من السلطان العثماني عام ١٨١٠م إضافة منصب ولاية الشام إلى منصب والي مصر، ولكن طلبه رفض[3]. ثم كرر محمد علي طلبه للسلطان بأن يضاف إليه حكم سوريا، بجانب حكمه لمصر، تعويضًا عما تكبده الجيش المصري من خسائر في هذه الحرب، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية، حاول محمد علي ضم هذه البلاد بالقوة لاستغلال مواردها من الخشب والفحم والنحاس التي تفتقر إليها مصر، وحتى تكون حاجزًا حصينًا بين مصر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة في محاربة محمد علي[4]. أخذ محمد علي يعمل على الاستفادة من الاضطرابات التي تنشب في بلاد الشام لصالحه، ويعمل على استغلالها تمهيدًا لبسط نفوذه عليها، ففي عام ١٨١٠م، لجأ يوسف كنج باشا والي الشام إلى مصر فارًا من وجه سليمان باشا والي صيدا، فاعتبر محمد علي باشا هذا الحادث فرصة للتدخل في الشام، فتوسط لدى السلطان العثماني لإعادة يوسف كنج إلى الشام شريطة مساعدة الأخير له في من سيطرته على سوريا[5].

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، جـ٣، دمشق، ١٩٢٥م، ص٥٧.

(٢) المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام، جمع الدكتور أسد رستم، المجلد الأول، بيروت، ١٩٤٠م، ص٢.

(٣) د. عبدالمنعم الجميعي، الجيش المصري وفتح عكا، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨.

(٤) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص٣٧٦ ـ ٣٨٢.

(٥) مذكرات تاريخية لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ص١٢.

أثارت أطماع محمد علي مخاوف الدول الأوربية من جهة، وسليمان باشا من جهة أخرى، من امتداد زحف الجيش المصري الذي غز الجزيرة العربية نحو سوريا، إلا أن خوف محمد علي من مقاومة العثمانيين لحملته، وعدم رضا السوريين عن حكمه، وتعارض مصالحه مع مصالح الدول الأوربية، كل هذه الأسباب أجبرت محمد علي على تأجيل حملته حتى عام ١٨٣١م[١].

اختار محمد علي الوقت المناسب لحملته على سوريا، فقد كان الموقف الدولي يسمح له بذلك حيث أن الدول الأوربية كانت منهمكة في شؤونها الداخلية إثر قيام امبراطورية نابليون، وكذلك كانت الدولة العثمانية ضعيفة وتمثل رجل أوربا المريض المنهوك القوي، نتيجة الثورات الداخلية وحروبها المتعددة التي خرجت منها منهوكة القوى. هذا فضلاً عن أن الدولة العثمانية قد قامت بتصفية الانكشارية، وفي نفس الوقت تقرب الأمير بشير الشهابي من محمد علي، كما كان محمد علي معاديًا لوالي صيدا عبدالله الجزار باشا الذي كان قد شجع الآلاف من الفلاحين المصريين الهاربين من ظلم جباة الضرائب في مصر[٢].

واعتمد محمد علي كذلك على تأييد النصارى له لما عرفوه عنه بمعاملته الطيبة للأقباط في مصر، ومناداته بالحرية والمساواة علاوة على كراهية الشعب للحكم التركي، وللاقطاعيين الذين تسلطوا على الشعب. وقام محمد علي بإعلان مشروع الدولة العربية التي لاقت استحسانًا وقبولاً وتأييدًا من الشعب في بلاد الشام، وأيده في هذه الدعوة ابنه إبراهيم باشا[٣]. والسؤال هو عما إذا كان محمد علي صادقًا في دعوته لقيام دولة عربية؟ وأرى أن محمد محمد علي لم يكن صادقًا في دعوته ولم تكن هذه الدعوة معبرة عن احساسه العربي، ولكنها كانت وسيلة لكسب تأييد الشعب العربي في بلاد الشام ذي الحس القومي العربي إلى جانبه، عند قدومه إلى سوريا واحتلال مدنها وقراها. والدليل على ذلك هو أن محمد علي لم يكن يسمح لأحد بتولي المناصب إلا من كان تركيًا أو مسيحيًا حيث اعتمد على المسيحيين

---

(١) د. عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٠م، ص٤٠٤.

(٢) محمد كرد علي، نفس المصدر، ص٥١، وانظر كذلك Dodwell, M, op. Eit, p.8.

(٣) نفس المصدر، ص١٧.

حيث اعتمد على المسيحيين في الإدارة، وكان يعتبر الذين يتحدثون التركية من الطبقة الاستقراطية، لذا لا صحة لدعوته العربية التي لم تقم على حس قومي عربي.

ومما لا ريب فيه أن الخلاف بين محمد علي باشا وعبدالله الجزار باشا والذي نشأ بسبب رفض عبدالله باشا إعادة الفلاحين المصريين الهاربين من التجنيد إلى سوريا، ورفض عبدالله باشا تسديد دينه، وتشجيعه التهريب في مصر للاضرار باقتصاد حكومة محمد علي، وفشل محمد علي في ضمه إلى جانبه رغم مساعدته له عند الضيق. فاستغل السلطان هذا الخلاف وحاول خلع محمد علي، كما حاول السلطان إثارة الفتنة بين محمد علي وابنه إبراهيم باشا ولكن دون جدوى، ولكل هذه الأسباب جهز محمد علي حمتله على سوريا بقيادة ابنه إبراهيم[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا اختار محمد علي ولده إبراهيم باشا لقيادة الحملة؟ والإجابة على هذا السؤال هو أن إبراهيم باشا يتصف بالقوة والشجاعة وحب النظام ولتمرسه في القتال، فقد كان إبراهيم باشا قائداً للحملة التي وجهت لقتال المماليك عام ١٨٠٧م، وعين حاكماً على الصعيد في عام ١٨٠٩م، إضافة إلى منصب الدفتر دار (منتسق الحسابات)، وأخيراً عين قائداً للحملة المصرية على الحجاز عام ١٨١٦م، التي قام فيها للقضاء على الدولة السعودية الأولى وتم له ذلك عام ١٨١٨م، وعاد إلى مصر عام ١٨١٩م، واضطلع ببعض المهام في السودان ثم أرسل إلى اليونان للقضاء على الثورة في المورة ضد الدولة العثمانية عام ١٨٢٤م، واستمر في اليونان بطلاً محارباً حتى عاد عام ١٨٢٨م، وفي نيته بناء أسطول قوي بدلاً من الأسطول الذي خسره في اليونان في معركة نفارين البحرية، وتأهب لغزو سوريا[2].

ومهما يكن من أمر، فقد كان تكليف إبراهيم باشا يدل على حصافة في الرأي ونفاذ في البصيرة لكي يحقق محمد علي باشا حلمه في السيطرة على سوريا. توجهت الحملة المصرية المكونة من ثلاثين ألف رجل وأربعين مدفعاً ميدانياً، وعدداً آخر من مدافع الحصار تساندهم قوة

---

(١) سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩م، ص٧٣.

(٢) عبدالرحمن زكي، الجيش الذي قاده إبراهيم، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ١٨٤٨ ـ ١٩٤٨م، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٣١ ـ ١٥٩.

بحرية قوامها ثلاثة وعشرون سفينة حربية وسبع عشر سفينة نقل بقيادة أمير البحر عثمان نورالدين بك[١].

انطلقت الحملة البحرية من القاهرة باتجاه غزة بقيادة إبراهيم باشا في اكتوبر عام ١٨٣١م، حيث احتلت غزة ويافا وحيفا واقتربت من عكا في أواخر نوفمبر[٢]. وفي ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وأرسل إبراهيم باشا إنذاراً إلى والي عكا يطالبه فيها بتسليم القلعة حقناً للدماء[٣]. ونتيجة لرفض عبدالله باشا لهذا الإنذار أمر إبراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات[٤].

حاول السلطان محمود الثاني رأب الصدع بين الجانبين المتحاربين، فأرسل مندوباً إلى محمد علي ينصحه بالعدول عن الحرب منعاً لسفك دماء المسلمين، ولكن محمد علي رفض العرض وتظاهر بالاخلاص للدولة العثمانية، وألمح أن هدفه من الحرب هو المحافظة على شرف مصر، وإعادة مجدها في ظل الدولة العثمانية، وأنه في حربه يحارب حاكماً ـ شبه مستقل ـ خارجاً عن طاعة الدولة[٥]، ويعني بذلك عبدالله باشا الجزار والي عكا، واشترط محمد علي عزل الجزار وتعيين وال آخر حائز على ثقة محمد علي[٦].

رفض السلطان طلب محمد علي، فأمر الأخير ابنه إبراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده، ومن هنا اتهمه السلطان ببذر بذور الفتنة والفساد بين الناس، واستصدر السلطان فتوى بأن محمد علي وابنه إبراهيم قد خانا الدولة ومرقا عن دين الله، وذلك لاستنفار الأهالي ضدهما، كما أمر بعزل محمد علي من منصبه، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية في مصر، حول شرعية حكمه، وقد

---

(١) نفس المصدر، ص٣٠٨ ـ ٣١٢.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، جـ١، الوثيقة، رقم ٣٤٠، ص١٢٨.

(٣) نفس المصدر، الوثيقة رقم ٢٣١، ص١٣٩.

(٤) داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام، ١٨٣٢م، القاهرة، بدون تاريخ، ص٧ ـ ٩.

(٥) عبدالرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص٢٥٠ ـ ٢٥٣.

(٦) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، الوثيقة رقم ٥٨، بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى محمد علي.

واجه محمد علي هذه الضجة بالعنف، فأعدم كل من وصل إلى مسامعه أنه أثار هذه الضجة، ومن بينهم بعض علماء الأزهر[١].

ونظراً لفشل المحاولات السلمية مع محمد علي، طلب السلطان من والي حلب إعداد العدة لمحاربته وتأديبه نظير تنصيبه حاكمًا عامًا على بلاد الشام، وأن تكون له اليد الطولي في تصريف أمورها[٢]. ولكي يتفادى محمد علي الصعوبات التي يمكن أن تواجه قواته أمام حصون عكا، أوعز إلى ابنه إبراهيم بمحاولة استمالة أفرادها من جنود عبدالله باشا بالمال، ولكن ابنه إبراهيم لم يرحب بهذه الفكرة، بل رأى أنه ينبغي تشديد الحصار على القلعة حتى يضطر الجنود إلى فتح أبواب القلعة والاستسلام، ومن ثم إلقاء القبض على عبدالله باشا وتسليمه[٣].

ونتيجة لذلك، أخذ إبراهيم باشا في اتخاذ الإجراءات اللازمة لتشديد الحصار على عكا، فضرب عليها حصاراً بحرياً قوياً، وأشرف بنفسه على نقل المهمات والأدوات اللازمة لذلك الحصار[٤]. كما حث جنوده على بذل التضحية وإظهار الشجاعة، ذلك لأن مدينة عكا مدينة محصنة، وقد استعصت على نابليون بونابرت من قبل، كما أنها محاطة بخندق عميق بين جبلين متقابلين يمكنها من إعاقة القوات المصرية، فإن الأمر لم يكن سهلاً أمام إبراهيم، ولذا كان إبراهيم على اتصال مستمر مع والده يستشيره في خططه التي يزمع القيام بها لاقتحام عكا، كما فجر الألغام في الخندق، وضرب الأسوار المجاورة له بالمدافع حتى تنهدم فيردم بالأتربة وتستطيع القوات الزاحفة عبوره[٥].

ولما انتهت القوات المصرية من استعدادها للهجوم على عكا، دقت طبول الحرب لاستثارة حماس الجنود وقد بدأت المدفعية المصرية تلقي مقذوفاتها على القلعة، وأخذت القوات المهاجمة في التقدم[٦]. ولكن استبسال قوات حامية عكا ودفاعها عن المدينة أعاق تقدم هذه

---

(١) Dsdwell, H. op. cit. p. llo.

(٢) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٤١، وثيقة رقم ٤٤، بتاريخ ٢ رجب ١٢٤٧هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى محمد علي.

(٣) نفس المصدر.

(٤) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٤، وثيقة رقم ٨٤، بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٢٤٧هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي.

(٥) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٤، وثيقة رقم ٨٠، بتاريخ ١٨ ذي الحجة، ١٢٤٧هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى محمد علي.

(٦) سليمان أبو عزالدين، نفس المرجع، ص٧٦.

القوات وزاد من فترة الحصار والتي طالت إلى أكثر من ستة شهور، وألحق العديد من الخسائر بالقوات المصرية المهاجمة[١]. وأرجع إبراهيم ذلك إلى عدم كفاءة بعض القوات للاستمرار في الهجوم وإلى فشل الاسطول المصري في دك حصون عكا، ونتيجة لذلك، طلب إبراهيم باشا من والده ضرورة الاهتمام بالاسطول المصري وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة حتى يستطيع مناوءة الأسطول العثماني، وعرقلة جهوده في مساعدة المدافعين[٢]. وقد أثار ذلك قلق محمد علي نتيجة عدم سقوط القلعة، إذ فكر آنذاك الحضور بنفسه لمراقبة الموقف في عكا، وفكر أيضاً في جلب أعداد من الجنود من جزيرة كريت لدعم القوات المحاصرة لعكا[٣].

والسؤال المطروح هل ترجع الصعوبات التي واجهها إبراهيم باشا وقواته إلى مناعة أسوار عكا واستبسال جنودها فقط، أم أن هناك أسبابًا أخرى؟ الواقع أن الخطة التي سلكها الباب العالي ضد محمد علي بتجريده من منصبه وإباحة دمه، قد أثارت الرأي العام الإسلامي ضده، وشجعت المرافعين عن عكا على الصمود، وجعلت بعض المسلمين يصبون لعناتهم على محمد علي ويتهمونه بالخروج عن طاعة السلطان، مما زاد في إصرار والي عكا على المقاومة. وأخذ كل فريق من الأطراف المتحاربة تشجيع قواته، وحثهم على الاستبسال في القتال، فقد أرسل محمد علي أمراً إلى قواته يناشدهم ببذل أقصى الجهود لفتح عكا. أما عبدالله باشا الجزار فقد استصدر فتوى من علماء عكا ورجال الدين تفيد أن من يموت من عساكره فمصيره الجنة بعكس جنود محمد علي فمصيرهم النار[٤].

بدأ كل طرف الاستعداد للمعركة الحاسمة، فأمر إبراهيم باشا قواته باطلاق مدافعها على القلعة من البر والبحر، فأحدثت فيها تصدعًا وفتحت فيها ثغرتين كبيرتين وأخرى صغيرة. وعندئذ قرر إبراهيم باشا مهاجمة المدينة بقواته فاقتحم جنوده مواقع المدافعين، واشتبكوا في قتال عنيف معهم استولوا خلاله على اثنين من الثغرات، واستطاعوا التقدم داخل المدينة، واشترك إبراهيم باشا بنفسه في القتال مما أثار الحمية في نفوس الجنود، وحققوا نصراً حاسمًا

---

(١) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، وثيقة ١٤٢، بتاريخ ٢٣ شوال، ١٢٤٧هـ.

(٢) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، وثيقة رقم ٥٨، بتاريخ ٢٣ رمضان، ١٢٤٧هـ.

(٣) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، وثيقة رقم ٦٧، بتاريخ ١٦ ذي الحجة، ١٢٤٧هـ. رسالة من إبراهيم باشا إلى محمد علي.

(٤) أسد رستم وفؤاد البستاني، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، جـ٣، بيروت ١٩٣٣م، ص٣٤.

على قوات عبدالله باشا الجزار، مما حدا ببعض جنود عكا بالانضمام إلى قوات إبراهيم باشا[١]، وتم احتلال القلعة في ٢٧ مايو ١٨٣٢م، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الزاحفة على بلاد الشام بعد صمود دام أكثر من ستة أشهر[٢].

وإثر دخول القوات المصرية مدينة عكا، جاد وفد من أعيانها وعلمائها إلى إبراهيم باشا طالبًا الرحمة والعفو والأمان، فوافق إبراهيم على طلبهم، ووعدهم بتأمين الأهالي في أرواحهم وأموالهم[٣]. وقد أعقب ذلك وصول وفد آخر من قواد الحامية لمناشدة إبراهيم باشا العفو عن رجال الحامية فوافق على ذلك، كما عفا عن عبدالله باشا الجزار وصافحه وأعطاه الأمان على دمه وعرضه وأرسله إلى والده في مصر عن طريق البحر. ولكن لماذا كان إبراهيم باشا رحيمًا مع حاكم عكا ورجالاته على الرغم من مقاومتهم الشديدة له أكثر من ستة شهور[٤].

لا شك أن إبراهيم باشا وهو قائد عسكري مقدام، قد احترم شجاعة أعدائه وصمودهم أمام قواته، ولذلك فإنه كان رحيمًا معهم، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وهذا من سمات وصفات القائد القدير والمحنك، أما عن عبدالله باشا الجزار فقد تم استقباله بحفاوة تليق بقائد جند شجاع، فاستقبل استقبالاً يليق بمكانته بصفته واليًا من ولاة الدولة العثمانية وليس كأسير حرب[٥]. وليس هذا لحسب؛ بل استقبل محمد علي خصمه العنيد استقبالاً رائعًا، وكان في مقدمة مستقبليه، وأعد له قصرًا لاقامته بالقرب من قصره، وأظهر نحوه روح التسامح وحسن النية وأهداه بعض الهدايا، وأثار ذلك دهشة الجميع حتى ولده إبراهيم[٦].

وهكذا فإن سقوط عكا بيد محمد علي قد أحدث أصداء محلية وعالمية، فقد حدثت هزة عنيفة لدى الدوائر الحكومية في استانبول، ودب اليأس في قلوب كبار رجالاتها، كما دب الرعب والدهشة في قلوب الجند العثماني[٧].

---

(١) سلمان أبو عزالدين، نفس المرجع، ص٨٠.

(٢) د. عبدالمنعم الجميعي، نفس المصدر، ص١٨ ـ ١٩.

(٣) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، وثيقة رقم ١٣٣، بتاريخ ٢٧ ذي الحجة، ١٢٤٧هـ.

(٤) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٢، وثيقة رقم ١٤٢، بتاريخ ٢٩ذي الحجة، ١٢٤٧هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي.

(٥) بيير كريبس، إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٦٠.

(٦) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٥، وثيقة رقم ٦٠ من إبراهيم باشا إلى سامي بله، وانظر كذلك عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص٢٥٩.

(٧) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٣٥، وثيقة رقم ٦٤، بتاريخ ٩ محرم، ١٢٤٨هـ.

أما في مصر فقد شمل الفرح والبهجة الناس، وأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متوالية[١]، كما طلب محمد علي من ابنه إبراهيم الاستيلاء على دمشق وبقية المدن الشامية الأخرى. وزحف الجيش المصري نحو دمشق واحتلها بدون مقاومة، وتابع الجيش زحفه فاحتل حمص وحماة وحلب، وأكمل استيلائه على بقية بلاد الشام[٢]. وتابعت القوات المصرية زحفها نحو مضيق بيلان، حيث تجمعت القوات التركية العثمانية بالقرب من أضنه، فاستولى إبراهيم باشا على أضنه، فقونيه، فكوتاهية، مما دفع السلطان العثماني لطلب المساعدة من روسيا، وتدخلت انجلترا وفرنسا، وتم عقد صلح كوتاهية في ٤ مايو ١٨٣٣م[٣]، وبموجبه أصبح محمد علي حاكمًا على مصر والجزيرة العربية والسودان وكريث، وتبقى بلاد الشام تحت حكم إبراهيم باشا لمدة أربع سنوات شريطة بقاء محمد علي تابعًا للسلطان العثماني، وشريطة جلاد إبراهيم باشا عن الأناضول.

وفيما يتعلق بالموقف الدولي تجاه فتح عكا، فقد انزعجت الدول الكبرى من انتصارات محمد علي، فأبدت روسيا قلقها ونظرت إليها بعين الخوف والدجل، كما أخذت بريطانيا تعيد حساباتها حول النتائج التي يمكن أن تترتب على استيلاء محمد علي على بلاد الشام، حيث أنها تريد المحافظة على نفوذها وعلى طرق مواصلاتها إلى الهند، لذا عملت على عقد الصلح المذكور مع محمد علي للحد من نفوذه وأطماعه. أما فرنسا، فقد كانت علاقتها الودية مع محمد علي تجعلها على يقين من إقناعه بالاعتدال في موقفه خشية تدخل روسيا[٤].

ومهما يكن من أمر، ونظراً لأهمية عكا الاستراتيجية، فقد أعاد إبراهيم باشا تحصينها، وأمر باصلاح ما تهدم من أبنيتها وترميمه، وأنشأ مجلسًا حربيًا لإدارة شؤونها، كما استخدمها إبراهيم باشا قاعدة عسكرية في بلاد الشام[٥].

---

(١) عبدالرحمن الرافعي، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٩.

(٢) جورج انطونيوس، يقظة العرب، بيروت، ١٩٤٦م، ص١٣.

(٣) مذكرات تاريخية لمؤلف مجهول، نفس المرجع، ص١٥-١٦.

(٤) نفس المصدر السابق، ص١٦.

(٥) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٥٤، وثيقة رقم ٣٢٤، بتاريخ ١٧ رمضان، ١٢٥٢هـ، من إبراهيم باشا إلى سامي بك.

الحكم المصري في بلاد الشام:

أحرزت الحملة المصرية على بلاد الشام نجاحًا كاسحًا خلال عامي ١٨٣١، ١٨٣٢م، وكادت أن تقضي على القوات العثمانية، وتهدد مقر السلطنة لولا تدخل روسيا القيصرية وإنقاذ السلطنة العثمانية، وفرض معاهدة كوتاهية (١٨٣٣م) على محمد علي التي ثبتت الوجود المصري في سوريا[١]. ويعود نجاح الحملة المصرية إلى عاملين جوهريين:

الأول: تفوق القوات المصرية العسكرية على قوات السلطنة العثمانية الضعيفة التي كانت تمر بمرحلة الانتقال من جيش الانكشارية إلى جيش النظام الجديد، هذا فضلاً عن الهزائم العسكرية التي منيت بها أمام التمردات والثورات.

والثاني: ترحيب أهالي سوريا بالحملة المصرية، اعتقادًا منهم بأن فتح المصريين لبلاد الشام سيؤدي إلى تحرير العرب، مما دفع الأهالي لمعاضدة وتأييد الحملة المصرية، واستقبالها بالتهليل والتكبير، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ساندوها ماديًا ومعنويًا وهذا يدل على كراهيتهم للحكم العثماني[٢].

وعلى العموم، فإن النظام المصري قد استقر في سوريا، وعمل على استتباب الأمن والنظام بعد أن قضت حملة إبراهيم باشا على المقاومة العثمانية المنظمة في عام ١٨٣٢م[٣].

أخذ إبراهيم باشا حاكم سوريا وقائد الحملة، على عاتقه القيام باصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية بعيدة المدى، وذلك لأن هذه الاصلاحات كانت تهدف إلى تكوين دولة عصرية مستقلة ديمقراطية[٤]، كما أن هذه الاصلاحات تهدف إلى مقاومة الاقطاعية والطائفية لخلق ظروف تتلاءم مع فكرة الدولة المركزية العصرية[٥].

---

(١) د/ اميل توما، المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) عبدالكريم رافق، المرجع السابق، ص٤٠٤.

(٣) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو، ١٩٧٠م، ص١٢٦، وانظر كذلك جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص١١٣.

(٤) محمد كرد علي، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٢.

(٥) د/ اميل توما، المرجع السابق، ص٩٠، وانظر كذلك جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص١١٩.

ولما تقلد إبراهيم باشا ولاية الشام، أولى جل اهتمامه وعنايته إلى تنظيم جهاز الدولة الإداري في معظم النواحي كتوزيع الضرائب والقضاء والتعليم والقانون والأمن. وكان الجهاز الجديد يفوق القديم، فنجح إبراهيم باشا في تشييد نظام جديد، قائم على المساواة الدينية والمدنية وحماية الأرواح والأموال[١]. ويقول سليمان أبو عزالدين في كتابه إبراهيم باشا في سوريا بصدد النظام: «لقد أحدث إبراهيم انقلاباً عظيماً في الحكم في بلاد الشام، فأدخل أنظمة جديدة في الإدارة والقضاء والمالية والجندية، وأدخل تغييراً خطيراً في النظام الاجتماعي، فأطلق الحرية الدينية ونشر روح الديمقراطية، وضرب على أيدي الزعماء الإقطاعيين ونزع السلطة من أيديهم، وأنشأ صلات مباشرة بين الشعب وحكامه بتأليفه مجالس للشورى تمثل الشعب، ولها حق النظر في الشؤون المحلية[٢].

وهكذا أصبحت حكومة محمد علي في القاهرة المرجع الأعلى لحكومة سوريا وكيليكيا، فأصبح إبراهيم باشا حاكماً عاماً وقائداً عاماً، كما ذكرنا من قبل، وضمت عكا وسائر فلسطين حتى سيناء، وعين شريف باشا حاكماً عليها، وأطلق عليها لقب حكمدار عربستان وفوض إبراهيم باشا إلى منيب أفندي إدارة شؤون الحكومة في عكا، وعهد إلى حسين عبدالهادي من كبار شيوخ نابلس بأن يكون نائباً لشريف باشا. أما المدن الساحلية وهي صور وصيدا وبيروت وطرابلس، فقد وجه إليها متسلمين، ويقومون بإدارة أعمال البلاد ويساعدهم المباشرون. وأنشأ ديوان المشورة في كل مدينة ويتراوح عدد أعضائه ما بين ١٢ ـ ٢١ ومهمته بحث أمور البلدة أو المدينة[٣].

وقد نجح إبراهيم باشا في الضرب على أيدي الاقطاعيين، مما ساعد على إنعاش الزراعة وفتح سبل التصنيع، وقد حدد إبراهيم باشا الضرائب التي تجبى من الفلاحين، وحرم الابتزازات الإقطاعية التعسفية، وأعفى الأرض البكر المحروثة من دفع أي نوع من الضرائب لمدة طويلة، وحث البدو على التوطن في الأراضي الزراعية للاستقرار. وأدى ذلك إلى نشوء قرى جديدة في

---

(١) نفس المرجع.

(٢) سليمان أبو عزالدين، المرجع السابق، ص١٣١ ـ ١٣٣.

(٣) مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا في سوريا والأناضول، القاهرة، ١٩٢٧م، ص٢٣ ـ ٣٨.

الأراضي الواقعة بين دمشق وحلب، واتسعت رقعة الأراضي الزراعية من ألفين إلى سبعة آلاف فدان في منطقة حوران. وتم حرث ١٥ ألف فدان من الأراضي البكر من جهة أخرى، مما ساعد على إلغاء جباية الضرائب على تطوير الصناعة والتجارة، وأضحى في وسع التجار والحرفيين الاطمئنان على سلامة أموالهم بعد أن زال شبح الخوف من ابتزاز الاقطاعيين لهم وسلبهم أموالهم[١].

وأصدر إبراهيم باشا أمراً إلى شيخ الحرم القدسي ومفتي الديار المقدسة وجباة الأموال وزعماء الحاضرة والبادية والمدن الشامية يأمرهم فيه بمعاملة اليهود والنصارى بالحسنى والتسامح في معاملتهم، ورفع التكاليف عنهم، وأمر بإلغاء الضرائب عن الحجاج الذين يؤدون فروض الديانة المسيحية، كما طالب باحترام حرية الأفراد والمعتقدات[٢]، وقد أجمع المؤرخون الأجانب بأن الحكم المصري المتسامح والمستقر في بلاد الشام، قد مكّن أهالي المدن والقرى المهجورة إلى العودة وحراثة الأرض المهملة (حوران وحمص). وأجبر البدو على احترام سلطة الحكومة والانصياع لقوانينها[٣].

ومهما يكن من أمر، فإن إبراهيم باشا قد قام بعدة إصلاحات في سوريا من أهمها: إعادة تنظيم الدولة إدارياً واعتماد مركزية الحكم، وزيادة وتنشيط التجارة الداخلية والخارجية والترانزيت، وإجراء إصلاحات في التعليم، وتأسيس أول مطبعة في لبنان، واعتماد اللغة العربية في التعليم، وبث الروح القومية العربية بين صفوف الشعب لكسب تأييدهم، وتنشيط الزراعة وتشجيعها، وتحديد الضرائب الزراعية، وزيادة المساحات المزروعة، وإنشاء قرى جديدة لتوطين البدو، وحصر الجمارك بيد السلطة الحالمة وتحديدها بدقة[٤].

وقد اعتمد إبراهيم باشا في حكمه في سوريا (بلاد الشام) على القوى السياسية التالية:

١ ـ الأمير بشير الشهابي في منطقة لبنان.

٢ ـ شيوخ آل عبدالهادي في منطقة نابلس.

---

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص٣٥.

(٢) جيب جاماتي، إبراهيم في الميدان، القاهرة، ١٩٣٤م، ص٣٥.

(٣) محمد كرد علي، المرجع السابق، جـ٣، ص٦٨.

(٤) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٢٠٧.

٣ ـ المسيحيون في أكثر المناطق الأخرى. فقد اعتمد إبراهيم باشا على المسيحيين في الإدارة كما اعتاد في مصر أن يعتمد عليهم، إذ كان يرى أن المناصب الكبرى في الدولة يجب أن تكون من نصيب الأتراك أو المسيحيين، ولم يكن محمد علي يسمح بأن ترسل رسالة إلى أي كان إلا عن طريق كاتب تركي أو مسيحي، وكان محمد علي يرى أن من يتحدث التركية في مصر هو بطبيعة الأمر من طبقة راقية اجتماعية. وعلاوة على ذلك، فقد خدم المسيحيون في حكومة محمد علي باخلاص، بسبب جو الحرية والتسامح والمساواة، الذي أعطاه للطوائف الدينية. كما قام إبراهيم باشا بإلغاء الحظر المفروض على الطوائف غير المسلمة والتي أوجدها الأتراك العثمانيون، مثل تحريم ركوب الدواب، واقتناء الجواري، ولبس العمائم، وسواها.. وقد منح إبراهيم باشا لقب بك لبحري بك المسيحي، تقديراً لخدماته في حكومة محمد علي في سوريا[١]. كما أن المسيحيين قاموا بمساندة ومساعدة قوات إبراهيم باشا في سوريا، هذا فضلاً عن اعتماده على قوات عسكرية أجنبية مسيحية في جيشه جعلته يميل إلى التعاون والتعامل مع المسحيين بسوريا[٢]. وقد أدت معاملة إبراهيم باشا للمسيحيين وتعامله معهم إلى أن تكون سببًا من أسباب قيام الفتنة بين الدروز والموارنة ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠م، بعد أن شعر الإقطاعيون بفقدان نفوذهم وامتيازاتهم في نفس الوقت الذي يقرب إليه المسيحيين مما أثار نقمة الأغوات والإقطاعيين ضد إبراهيم باشا والمسيحيين[٣].

وكان السوريون قد أملوا أخيراً في الحكم المصري لرفع الظلم الواقع عليهم، فقد انتظروا من حكومة محمد علي مزايا كثيرة: منها إقرار الأمن في البلاد وإنقاذها من الفوضى. هذا فضلاً عن أن إبراهيم باشا قد وعد السوريين بأنه سيعفيهم من التجنيد ويخفف الضرائب عن كاهلهم، ولا يكلفهم سوى دفع الأموال الأميرية، والتي كانت تشكل عبئًا ثقيلاً عليهم في عهد الحكومة العثمانية، لما رافقها من سوء المعاملة في التحصيل والابتزاز، فخفف إبراهيم باشا الأعباء المالية وعمل على تنشيط الزراعة والتجارة، فبدأ الناس يشعرون بالطمأنينة والرخاء وبالاخلاص للحكومة الجديدة. غير أن زمن الرخاء لم يطل فقد أصدر محمد علي إلى

---

(١) مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا إلى سوريا لمؤلف مجهول، نفس المرجع، ص١٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص١٨.

(٣) نفس المرجع السابق.

ولده إبراهيم باشا في أوائل عام ١٨٣٤م، يطالب فيها احتكار تجارة الحرير في بلاد الشام، وتحصيل (الفرده) ضريبة الرؤوس من جميع الرجال، والتجنيد، ونزع السلاح[١]. وكانت هذه الطلبات سبباً في قيام التمردات والثورات.

الثورة في فلسطين ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م:

لا ريب أن الحكم المصري في بلاد الشام قد سجل عدة إيجابيات، إلا أنه كانت له بعض السلبيات التي استغلها معارضوه لتكون الصخرة التي تحطم عليها، فقد فرض محمد علي على أهل الشام التزامات منها: احتكار تجارة الحرير، وضريبة الفرده (الرأس)، والجندية، ونزع السلاح، والسخرة، والتلاعب بأسعار العملة، وإنشاء الخمارات، مما أثار حفيظة أهل البلاد ودفعهم للخروج عليه والثورة ضده[٢].

وكان محمد علي قد اضطر إلى فرض الالتزامات على أهالي الشام، وأجبروا على تأديتها لتغطية احتياجات القوات العسكرية من ناحية، وللمساهمة في الأعمال التي تطلبتها سياسة الدولة من ناحية أخرى[٣]. فقد أقدمت الحكومة على شراء كميات كبيرة من المواد التموينية بأسعار مخفضة، وخصم الضرائب المستحقة على الأهالي، وكذلك الحصول على دواب الحمل بالقوة، واستخدمت العمال في بناء الثكنات العسكرية الكبيرة بالسخرة، وكذلك فرض الجندية ونزع السلام[٤].

وأيًا ما كان الأمر، فإن هذه الأوضاع القسرية الجبرية أثرت على الاقتصاد، وأسهمت في خلق العقبات، فشيوخ القرى يشكون من هذه الإجراءات، وعم الاستياء من جراء تلك الالتزامات[٥]. وقد كانت هذه الإجراءات غير مقبولة لدى الكثير من أهالي الشام، خاصة الذين كانت لهم السطوة والجاه والقوة والجبروت، وألغوا فرض سلطانهم، وساءهم الخضوع لنظام الدولة الدقيق وأن تطبق عليهم قوانين موحدة[٦].

---

(١) سلمان أبو عزالدين، نفس المرجع، ص١٥١ ـ ١٥٣.

(٢) سليمان أبو عزالدين، المرجع السابق، ص١٥٦ ـ ١٦٩.

(٣) د. لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام، ص٢٨٣.

(٤) نفس المرجع، ص٢٨٤ ـ ٢٩٢.

(٥) وثائق عابدين، محافظ الشام، وثيقة ٥٣٣، بتاريخ ٩ ربيع الآخر، ١٢٥٦هـ.

(٦) Fo. 68 val. 343. No. 48. From Gampbell ta Palmerstone. July. 12, 1889.

نفذ إبراهيم باشا أوامر والده الداعية إلى احتكار تجارة الحرير وتحصيل (الفردة) ونزع السلاح وإجراء التجنيد وغيرها، وهو في مدينة يافا، ونتيجة لذلك استاءت القبائل العربية والأسر المتنفذة لهذه الإجراءات والتي اعتادت على عدم الخضوع لأي نوع من الالتزامات في عهد الدولة العثمانية، ومنها زعماء جبل نابلس (آل طوقان وآل جرار)، وآل أبو غوش في القدس الذين كانوا قد فقدوا امتيازاتهم السابقة على يد محمد علي[1].

وازاء ذلك، فقد جرت اتصالات بين زعماء فلسطين لرص صفوفهم وتوحيد لرفض هذه الإجراءات التي فرضتها الحكومة، فعلم إبراهيم باشا بذلك وذهب إلى القدس مع جيشه وأحاط بها، ودعا الحكم وشيوخ القبائل المجاورة، ولم يترك لهم فرصة لتوحيد كلمتهم، وأحاطهم علمًا بأوامر والده فلبوا الدعوة دون معارضة، وذلك لعدم قدرتهم على تحدي قوة إبراهيم باشا. ولكنهم حاولوا من جانبهم تعديل بعض المطالب كاستبدال الجندية بتعويض مالي أي زيادة الضرائب، كما توسلوا إليه أن يعفيهم من تسليم السلاح، غير أن إبراهيم باشا رفض ذلك، وأبلغهم أنه ينفذ أوامر والده فقبلوها مرغمين[2]. غير أن الأهالي قد غيروا رأيهم ورفضوا هذه الشروط وخاصة بعد أن سمعوا أن الدولة العثمانية تعد جيشًا جرار للزحف على سوريا من أجل استرجاعها، فعاد البدو (العربان) إلى الانتفاضة في جبل نابلس وجبال القدس. وتزعم الثورة الشيخ قاسم الأحمد الذي اعتقله إبراهيم باشا كرهينة هو وحسين عبدالهادي، ثم فر قاسم الأحمد من يافا وجاء إلى القدس، وانضم آل أبو غوش إلى الثوار وامتدت الثورة من القدس حتى يافا، ووصلت أخبار هذه الاضطرابات إلى إبراهيم باشا من خلال الرسائل المتبادلة مع المسؤولين، وتم إلقاء القبض على أولاد محمد القاسم، وامتدت الاضطرابات لتشمل منطقة الخليل حيث جرت بعض المعارك في سعير (إحدى قرى الخليل)[3].

---

(١) سليمان أبو عزالدين، المرجع السابق، ص١٦٩، وانظر كذلك مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا إلى سوريا لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ص١٠٠.

(٢) وثائق عابدين، محفظة ٢٤٩، وثيقة رقم ١٧، رسالة من جرمانوس بحري إلى سامي بك بتاريخ ١١ محرم، ١٢٥٠هـ، ٢١٠ / ٥ / ١٨٣٤م.

(٣) وثائق عابدين، محفظة ٢٤٩، وثيقة رقم ١٨، ١٩، ٩، ١٢، محرم ١٢٥٠هـ، رسالة من جرمانوس بحري إلى سامي بك.

وجرت عدة معارك بين اللواء المرابط في القدس في منطقة الكرك والخليل وبين البدو ووجد هذا اللواء مقاومة عنيدة من البدو (العربان)، فجردوا قائده من ثيابه وأسلحته وأرسلوه إلى غزة[١]. وقد أرسل اللواء إبراهيم بك رسالة إلى محمد علي باشا أخبره فيها عن تجمع الفلاحين في قرية البيرة، قضاء رام الله، وتوجههم إلى قرية أبي عريش لقطع الطريق على العساكر القادمين من يافا إلى القدس، فجرت معارك دامية خسرت فيها القوات المصرية المهاجمة[٢].

وقد تحركت قوات أخرى قادمة من يافا في طريقها إلى الرملة ثم القدس بقصد القضاء على الثوار، ولذا اضطر إبراهيم باشا إلى إخبار والده وطلب مزيداً من العسكر، ووعد محمد علي ابنه بإرسال لواء كامل لنجدته من مصر[٣]. ولما وصلت الإمدادات من مصر، توجهت قوات إبراهيم باشا إلى القدس لضرب الثوار، فلما وصلت القوات إلى قرية أبي غوش، اشتبكوا مع الثوار في معركة دامية دون نتيجة تذكر، ثم تجدد القتال ونجح إبراهيم باشا بالفوز على الثوار وفتح طريقه إلى القدس، وشتت جموع الثوار، فأباح إبراهيم باشا لجنوده نهب منازلهم، ونهب كذلك منازل اليهود خطأ لقربها من منازل المسلمين. وأحيط محمد علي علماً بذلك[٤].

غير أن إبراهيم باشا وجد موقفه حرجاً في القدس، حيث أن الثوار كانوا يحيطون به من كل جانب، فأهل نابلس كانوا يهاجمونه من جهة، وعرب البحر الميت من جهة أخرى، ومواصلاته مع يافا مقطوعة لاعتراض آل أبي غوش في الطريق، فحصلت بين إبراهيم باشا والثوار ثلاث معارك كان النصر فيها لإبراهيم باشا[٥]. كما هاجم إبراهيم باشا ثوار الخليل

---

(١) وثائق عابدي، محفظة رقم ٢٤٩، وثيقة رقم ٢٠، ١٥ محرم، ١٢ محرم ١٢٥٠هـ، رسالة من اللواء علي بك إلى سامي بك.

(٢) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٤٩، وثيقة رقم ٢٢، ١٥ محرم، ١٢ محرم ١٢٥٠، رسالة من اللواء إبراهيم بك إلى محمد علي باشا.

(٣) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٤٩، وثائق رقم ٢٣، ٢٦، ٢٩، ٤٥ بتاريخ ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ محرم ١٢٥٠هـ، رسائل متبادلة بين إبراهيم باشا ووالده محمد علي.

(٤) وثائق عابدين، وحفظة رقم ٢٤٩، وثائق رقم ٥٧، ٥٨، ٥٩، بتاريخ ٢، ٣، ٥ صفر، ١٢٥٠هـ رسائل من قادة الجيش إلى محمد علي باشا.

(٥) وثائق عابدين، محفظة رقم ٢٤٩، وثيقة رقم ٦٣، صفر ١٢٥٠هـ، رسالة من إبراهيم باشا إلى جرمانوس بحري.

وتغلب عليهم في بيت جالا وبيت لحم، وسقط نحو ثمانين قتيلاً منهم، لكن قوة الثوار لم يصبها وهن وضعف، وهممهم وعزائمهم لم تفتر عن القتال[١].

وقد علم محمد علي بكل التطورات فوجه رسائل إلى محمد شريف بك وإلى الأمير بشير الشهابي والشيخ حسين عبدالهادي يخبرهم فيها بأنه أرسل إمدادات عسكرية من مصر، وأنه عزم على الحضور إلى يافا لإعادة الأمن والنظام وتأمين الأهالي[٢].

ويستفاد من الرسائل المتبادلة بين السر عسكر قادة الجيوش في فلسطين ومحمد علي اطلاعهم عزيز مصر محمد علي على ما يجري في فلسطين، ويطلبون منه العون بارسال النجدات المطلوبة والمؤن والعتاد اللازم للقضاء على العصبان والتمرد في منطقة القدس ونابلس والخليل ويافا، ولكن الثوار استمروا على موقفهم والمعارك لازالت مستمرة بين الجانبين[٣].

وفي ٢١ صفر ١٢٥٠هـ، ٢٩ يونيو ١٨٣٤م، وصل محمد علي باشا إلى يافا قادمًا من الاسكندرية ومعه جيش عددة خمسة عشر ألف مقاتل، وعندما علم إبراهيم باشا بقدوم والده إلى يافا، ذهب لمقابلته للتشاور معه في اتخاذ الوسائل الكفيلة للقضاء على الثوار، وعاد محمد علي إلى مصر بعد أن استمال إليه سبعة من شيوخ الثوار.. ومن أبرز هؤلاء الشيوخ قاسم الأحمد زعيم جبل نابلس، وآل أبي غوش وآل عبدالهادي وغيرهم. واتفق معهم على أن يكونوا أصدقاء محمد علي. وقرر محمد علي العدول عن التجنيد والتسامح معهم في أمور أخرى ومنحهم مكافآت[٤]. وبهبوط كفة الثوار طلب أهل القدس والخليل وكثير من أهالي نابلس العفو والأمان، ولكن أهل نابلس نقضوا العهد وأشعلوا الثورة، وأخذوا يعقدون الاجتماعات فحضر إبراهيم إليهم، ومعه قوات كاملة العدد وتمكن من قهرهم، وأخضع

---

(١) نفس الوثيقة بالمصدر السابق، وانظر كذلك سليمان أبو عز الدين، المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) وثائق عابدين، دفتر رقم ٢١١، وثيقة رقم ١٨٥، ١٨٦، ١٩١، بتاريخ ٦ صفر ١٢٥٠هـ، من محمد علي باشا إلى إبراهيم باشا وإلى محمد شريف بك وإلى أسعد بك متسلم يافا.

(٣) وثائق عابدين، دفتر رقم ٢١١، وثيقة رقم ٨١، ٨٢، بتاريخ ١٢ صفر ١٢٥٠ من أسعد الخضر متسلم يافا إلى محمد علي باشا.

(٤) سلمان أبو عز الدين، مرجع سبق ذكره، ص١٧٤.

نابلس وأعطاها الأمان[١]. وثارت صفد على الحكم المصري وفي غمار الثورة اعتدي على أموال اليهود وممتلكاتهم، وأبدى الأمير بشير الشهابي رغبته في التعاون لاخماد تلك الثورة، وأرسل ابنه إلى محمد علي في يافا، وانتهى الأمر بالقضاء عليها[٢].

أما في نابلس والتي كانت قد اندلعت فيها الثورة في بداية الأمر بسبب سياسة التنجيد، فقد عمل إبراهيم باشا على إثارة الخلاف والفرقة بين زعماء فلسطين، فقرب منه آل أبي غوش وآل عبدالهادي، فأمن على خط مواصلاته ما بين يافا وداخل فلسطين. وضاق نطاق الثورة فبر إبراهيم باشا بوعده لآل أبي غوش بأن أخلى سبيل والدهم الذي كان سجينًا في عكا. وجعل الابن الأكبر زعيمًا لقومه والابن الثاني متسلمًا على القدس[٣]. وجعل من الشيخ حسين عبدالهادي من رجاله المقربين، أما الشيخ قاسم الأحمد فأصر على مقاومة إبراهيم باشا رغم انفصال أبناء أبي غوش وأتباعهم عنه، فجمع رجاله واستعد لمواجهة الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا، وكان النصر حليف إبراهيم باشا، وخسر أهل نابلس عددًا كبيرًا من الجنود عدا الأسرى[٤]. وكان إبراهيم باشا يحرق القرى التي يفر أهلها من وجهه، ولكنه أعطى أهل نابلس الأمان وقبض على بعض الثوار وقتلهم ومنهم الشيخ مسعود وولده، أما زعماء الثورة وهم قاسم الأحمد وعيسى البرقاوي وعبدالله الجرار من زعماء الثوار ففروا إلى الخليل[٥].

وتمكن إبراهيم باشا من نزع سلاح الأهالي وجمع ضريبة الرأس وتوطيد الأمن مما دفع والده محمد علي العودة إلى الاسكندرية. وقد نجح إبراهيم باشا في القضاء على الثوار في الخليل، ونهب أموالهم وسبى رجالهم، مما دفع زعماء الثورة إلى الفرار إلى السلط والكرك، وتعقبهم إبراهيم باشا ونجح في القضاء عليهم، وأسر من أسره، وقتل زعماء الثورة منهم قاسم الأحمد وزملائه، ولجأ إبراهيم باشا إلى تخريب القرى وخاصة إلى صهاريج المياه واحتل القدس والخليل وبيت لحم[٦].

---

(١) لطيفة سالم، المرجع السابق، ص٢٩٨.

(٢) وثائق عابدين، محفظة ٦٦، وثيقة رقم ٣٤٧، ٢٧ جمادى الأولى، ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، وانظر كذلك محمد كرد علي، مرجع سبق ذكره، جـ٣، ص٦٢.

(٣) سليمان أبو عزالدين، المرجع السابق، ص١٧٥.

(٤) مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا إلى سوريا لمؤلف مجهول، المرجع السابق، ص١٠٩.

(٥) مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا، جـ١، ص٤٤.

(٦) سليمان أبو عزالدين، المرجع السابق، ص١٧٧ ـ ١٧٩.

وكان أهل غزة قد أعلنوا الثورة، وتمكنت قوات إبراهيم باشا من الانتصار عليهم، وأمر إبراهيم باشا بتدمير بيوتهم ونهب أموالهم. واتفق محمد علي مع ابنه إبراهيم في يافا بإفناء الثوار وكسر قوتهم، وعاد محمد علي إلى مصر بعد أن استجار إليه عدد من زعماء الثورة[١].

وتأسيسًا على الأوضاع السائدة، طلب أهل القدس والخليل والكثير من أهل نابلس العفو والأمان، ورجا شيوخهم من إبراهيم باشا السماح فوعدهم بذلك بشرط الخضوع والاستسلام، ولكن النابلسيين نقضوا العهد وأشعلوا الثورة، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ويتحركون هنا وهناك من أجل الانتفاضة مرة أخرى، فحضر إليهم إبراهيم باشا ومعه قوات كاملة العدد والعتاد، وتمكن من قهرهم وأخضع نابلس وأعطاها الأمان وألقى القبض على الفلاحين وجند بعضهم في الأسطول وآخرين في المشاة[٢].

وهكذا استطاع إبراهيم باشا القضاء على الثوار، واعتقال قسم كبير منهم، والحكم عليهم بالإعدام أو النفي. كما جرد الأهالي من السلاح، وأحرق القرى، واستخدم أقسى الطرق في العقوبات حتى تكون عبرة للناس. غير أن إبراهيم باشا قد عفا وتسامح عن بعض الحالات التي طلبت العفو والمغفرة بعد اعترافها بذنبها[٣]. والسؤال الذي يطرح نفسه: من هي القوى التي تدعم الثورات.

لا ريب أن هذه الثورات كانت تدعمها قوى خارجية وعلى رأسها الدولة العثمانية التي استطاعت كسب الزعامات الاقطاعية القديمة ووعدتهم بالمناصب، كما زودتهم بالسلاح والعتاد. وعلاوة على ذلك، كانت الدول الأوربية بزعامة بريطانيا تشارك في إشعال نار الثورات لخلق المصاعب أمام الحكم المصري في بلاد الشام والإطاحة به قبل أن يشتد عوده ويقوى، ويمنع بريطانيا من تحقيق أهدافها في المنطقة. وقام سفير بريطانيا في استانبول بالضغط على السلطان من ناحية، وإثارة أهل الشام ضد الحكم المصري لاسقاطه[٤]. ولعب

---

(١) وثائق عابدين، معية تركي، محفظة ٢٥، دفتر ٥٦، رقم ١٥٤، بتاريخ ١٢ صفر ١٢٥٠هـ.

(٢) وثائق عابدين، معية تركي، محفظة ٢٦، دفتر ٥٩، ربيع أول ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

(٣) د. أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، المجلد الثاني، ص١٢١ ـ ١٢٢، وثيقة رقم ١٣٨ بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

(٤) د. لطيفة محمد سالم، نفس المرجع، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

الجواسيس دورهم تساندهم بريطانيا والدولة العثمانية، كما كان للقناصل الاجانب والأجهزة الإعلامية دور بارز في إسقاط النظام المصري والتحريض على الثورات وقد نجحت بريطانيا بالتعاون مع النمسا وروسيا بالتحريض على الثورة وإسقاط النظام المصري[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الحكم المصري قد أثبت قدرته على توحيد المنطقة المتعددة العناصر والطوائف والمصالح والأهواء تحت نظام ثابت موحد ومبادئ ثابتة وقواعد حديثة، وأبعد التعصب والاستبداد والتعسف والطغيان، وأحل الأمن والعدل والمساواة لكي يدخل المجتمع الشامي في إطار المدنية الحديثة، إذ أن محمد علي أراد أن يخلق كياناً متميزاً للشام تمثل في النظم الإدارية والمالية والقضائية وغيرها.. إلا أن النظام المصري يؤخذ عليه فرض الضرائب على جميع الأغنياء قبل الفقراء، وكذلك فرض التجنيد ونزع السلاح مما أثار الناس ضده، فقامت ثورات في بلاد الشام تدعمها بريطانيا والدولة العثمانية لاسقاط النظام الذي كان يهدد مصالح الدولتين.. ويمكن القول بأن محمد علي كان موالياً لفرنسا وهي تدعمه، من أجل إثارة روح القومية بين العرب، وتحقيق العدالة والمساواة لأهل الذمة من النصارى واليهود.

د. إسماعيل أحمد ياغي
كلية الآداب للبنات بالرياض
قسم التاريخ

(١) وثائق عابدين، محفظة بحر برا، محفظة ١٨، وثيقة رقم ٢٤، ٦ ذو الحجة ١٢٥٠هـ، ١٨٣٥م.

مصادر البحث

أولاً ـ الوثائق العربية :

ـ وثائق عابدين : محافظ رقم : ٦٤ ، ٦٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ .

ـ معية تركي ، محفظة : ٢٥ ، دفتر ٥٦ ، محفظة بحر برا ، محفظة ١٨ .

ـ المحفوظات الملكية المصرية ، وثائق الشام ، ٤ مجلدات ، بيروت ، ١٩٤٠م ، جمع وترتيب الدكتور أسد رستم .

ثانيًا ـ الوثائق الإنجليزية :

- Fo. 78. vol. 226. from palmerstone te Gampbell, Feb 1833.

- Fo. 68. vol. 343. No. 48. From Campbell to palmerstone. july 12.

ثالثًا ـ مذكرات شخصية :

ـ مؤلف مجهول ، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا في سوريا ، تحقيق أحمد غسان بيروت بدون تاريخ .

رابعًا ـ المصادر والمراجع العربية :

١ ـ اميل توما (الدكتور) ، فلسطين في العهد العثماني ، عمان ١٩٨٤م .

٢ ـ أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٢٦م .

٣ ـ أسد رستم (الدكتور) ، المحفوظات الملكية المصرية ، وثائق الشام بيروت ، ١٩٤٠م .

٤ ـ أسد رستم (الدكتور) ، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ، ٤ مجلدات ، بيروت ، ١٩٤٥م .

٥ ـ أسد رستم وفؤاد البستاني ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ، بيروت ، ١٩٣٣م .

٦ ـ أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٢٦م .

٧ ـ بيير كريبس ، إبراهيم باشا ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

٨ ـ جاد طه (الدكتور)، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٥م.

٩ ـ جلال يحيى (الدكتور)، العالم العربي الحديث، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠ ـ جورج انطونيوس (الدكتور)، يقظه العرب، بيروت، ١٩٤٦م.

١١ ـ حبيب جاماتي، إبراهيم في الميدان، القاهرة، ١٩٣٤م.

١٢ ـ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام، ١٨٣٢م، القاهرة بدون تاريخ.

١٣ ـ سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩م.

١٤ ـ عبدالرحمن زكي، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٥ ـ عبدالرحمن زكي، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، (١٨٤٨ ـ ١٩٤٨م)، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٦ ـ عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٧ ـ عبدالمنعم الجميعي (الدكتور)، الجيش المصري وفتح عكا، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٨ ـ عبدالكريم رافق (الدكتور)، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٠م.

١٩ ـ لطيفة محمد سالم (الدكتور)، الحكم المصري في بلاد الشام، القاهرة، ١٩٩٠م.

٢٠ ـ لوتسكى، تاريخ الاقطار العربية الحديث، موسكو، ١٩٧٠م.

٢١ ـ محمد فؤاد شكري (الدكتور)، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٢ ـ محمد كرد علي، خطط الشام، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٢٥م.

٢٣ ـ مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا في سوريا والأناضول، القاهرة، ١٩٢٧م.

خامساً ـ المراجع الانجليزية:

- Dodwell, H, the foumcler of Modern, Egypt, Astudy of Mohammad Ali, Lomdon, 1931.

- Ployfair, R. L. A History, of Arabia felix of yeen London, 1930.